الرجوع إلى الباطل
خير من التمادى فى الحق . . . !

صفحة من حياة تشلينى

للدكتور محمد عوض محمد

«بنفنيتو تشلينى Benenuto Cellini من كبار رجال الفن الايطالى فى عهد النهضة ، ولد فى مدينة فلورنسا عام ١٥٠٠ وتوفى بها عام ١٥٧١ وقد نبغ أولا فى صياغة الذهب والفضة صورا وتماثيل غاية فى الدقة والجمال . وبعد ذلك استطاع النبوغ فى صناعة التماثيل من الحجر والبرنز ، وقد عاش فى روما وباريس حيث دعاه فرانسوا الأول ليعمل عنده ، وقضى النشط الأخير من حياته فى وطنه فلورنسا ، وله مؤلفات فى الفنون التى مارسها ، وله كتاب ضمنه مذكرات عن حياته الحافلة بالحوادث وعلى احدى هذه الحوادث قد بنيت القصة التالية »

الرجوع الى الباطل ، خير من التمادى فى الحق . . .

ذلك هو الدرس القاسى الذى ألقاه القضاء الساخر والقدر الجائر على فنان فلورنسا العظيم بنفنيتو تشلينى ، فى يوم بدأ ضاحكا وانتهى عابسا متجهما . . .

ذهب الفنان الى الحجرات الخاصة فى قصر دوق فلورنسا ، ليشرف على الاعمال الفنية التى كلف القيام بها : من تزويق وتنميق فى الجدران والأثاث ، وتحلية بالذهب والفضة ، ومن نقوش بديعة وتماثيل بارزة . . . ولم يكن فى فلورنسا كلها فكر أبرع ، ولا يد أقدر من فكر بنفنيتو تشلينى و يده ، ذلك الرجل الذى لم يكفه أن نبغ فى صياغة الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، فأتى فى هذا الضرب من الفنون بالرائع الساحر ، بل أراد أن ينافس المثالين والنحاتين فى صناعة التماثيل الضخام ، ينحتها من الصخر أو يصبها من البرنز . فكان له ما أراد ، وبات نابغة زمانه فى الصناعتين الدقيقة والجليلة .

وكان يحلو لدوق فلورنسا أن يمر به وهو يشتغل وعماله فى الجناح الخاص بقصر الأمير ، فيتحدث اليه عن الفن وعن رجاله وأنصاره . ويناقشه فى رأى ارتآه الفنان أو خطة أراد رسمها .

وكان بنفنيتو حلو النادرة ، سريع البادرة ، فى شىء من غرور النوابغ ، وغطرسة الواثق بنفسه .

وفى اليوم الذى نحن فى صدده ، جاء الدوق فتحدث اليه قليلا ، ثم عاد لينظر فى بعض أمور الدولة . . . وسألت الدوقة عن تشلينى ، فقيل لها إنه جالس وحده يشرف على الأعمال التى يقوم بها فى جناح الأمير الخاص ، فلم تمض لحظات حتى كانت الدوقة جالسة تتحدث الى تشلينى وتطرى ماقام به من اعمال الزينة فى قصر الامير ، ثم أرته عقدا من اللؤلؤ يشتمل على ثمانين لؤلؤة وقالت : أيعجبك هذا العقد ؟ قال : إنه لعقد جميل يامولاتى ! قالت فانى أريد أن يشتريه الدوق لى . فلا بد لك أن تقول له ماشئت فى مدحه والاشادة بذكره ، وأن تبالغ فى اطرائه ما استطعت الى ذلك سبيلا

كان تشلينى يظن أن الدوقة قد اشترت العقد وقضى الأمر . ولهذا بادر إلى مدحه واطرائه ، أما الآن — واللآلىء لم تُشْتَرَ بعد — فقد رأى واجبا عليه أن يطلعها على ما يراه فيها من عيوب ، ولم يكن فى فلورنسا كلها أقدر منه على نقد الجواهر واللآلىء ، ولا أبصر بمواضع العيوب منها .

فقال : مولاتى ! حسبت العقد ملكا لك فبادرت الى مدحه . فأما وأنت تهمين بشرائه ، فانى أرى لزاما على أن أطلعك على ما به من عيوب بينة تحط من قدر هذه اللآلىء . ومن أجلها لا أستطيع أن أنصحك بالشراء .

قالت : لقد رضى التاجر صاحب هذه البضاعة أن يبيعنا اياها بستة آلاف دينار . ولو لم تكن بها تلك العيوب الطفيفة التى تذكرها لما رضى بأقل من اثنى عشر ألفا .

فجعل تشلينى يبذل النصح النمير . ويقول للسيدة الكريمة إن هذه اللآلىء لو كانت خالية من كل عيب ، وبالغة أقصى غاية الكمال ، لما جاز لأحد أن يدفع فيها أكثر من خمسة آلاف . فأما وقد اشتملت على كل هذه النقائص فانها لن تساوى نصف هذه القيمة . وفوق هذا كله ، فان اللآلىء ليست كالأحجار الكريمة نفاسة وقيمة . إنما القيم النفيس هو الماس ، والياقوت ، والزبرجد ، والعقيق ، والفيروج ، هذه هى الاحجار الكريمة التى تزداد على مدى السنين رونقا وبهاء . أما اللآلىء فليست سوى قطع من محار البحر ، وعظام السمك ، لاتلبث أن تفقد بهجتها ورونقها بعد سنين قلائل !

لكن الأميرة كانت صلبة كصلابة الماس ، وقد وطنت النفس على حيازة هذا العقد . وفي رأسها عينا امرأة قد بهرهما لمعان اللؤلؤ . فأوحتا الى قلب المرأة الذي بين جوانحها ، فاذا القلب قد اشتهى ذلك العقد ، واتخذ لحيازته إرادة لا تثنى ، ورغبة لا تقبل الجدل ، ورأى تشليني أنه غدا بين نارين ، فاما أن يغضب الأميرة او يخدع الدوق . . .

فقالت له : هون عليك الأمر ، فانا الضمينة بأن الدوق لن يمسك بسوء ، بل وستنال أجرك مني يوم تغدو هذه اللآلىء لي . وقد وطنت النفس على احرازها . فاذهب بها الآن الى الدوق . وأطنب في مدحها ما استطعت .

* * *

كان من أكبر مايفخر به تشليني الصراحة والأمانة . ولقد طالما جنت عليه الأولى ، وأفقدته الثانية شيئا كثيرا من المكسب والمغنم ؛ ومن قبل ماجنت عليه صراحته يوم كان في بلاط فرنسوا الأول ملك فرنسا . فرأى نفسه فجأة وقد غضبت عليه مادام « ديتامب » معشوقة الملك ، وأصبحت له عدوا عنيدا ، لاتجدي مع عداوتها صداقة أحد ، حتى ولا صداقة الملك نفسه . فلم يلبث ان اضطر الى مغادرة أكبر ملوك العالم وأغناهم وأسخاهم . والآن أيغضب الدوقة العظيمة ، دوقة فلورنسا ! من أجل كلمة تريد أن يقولها ، فيرتكب في فلورنسا — وطنه العزيز — ما ارتكبه في فرنسا من قبل ؟ ويفقد ماناله في قصر الدوق من حظوة ومن مقام رفيع ؟

تناول العقد ، ومشى به الى الدوق — وقد عزم على ان يقول كلمات قلائل يمدح بها العقد ، ولعل الدوق ان يغفر له هذه الخطيئة من أجل الأميرة . . فلما رآه الدوق قال — ماالذي جاء بك يابنفنيتو ؟

قال — عقد جميل من اللؤلؤ أردت ان أنصح مولاي بشرائه فاني ما رأيت عمري ثمانين لؤلؤة كريمة قد نظمت في عقد بمثل هذا الحسن الباهر ، وهذا التنسيق البديع

قال الدوق — ماأنا بالذي يشتري لآلىء مثل هذه ، فلقد رأيتها من قبل ، فلم يرقني منظرها ولا حسنها . وما هي بالنادرة كما تزعم ولا النفيسة !

قال — عفوا مولاي ! انها وايم الحق درر غوال ، ولاأعرف أن عينا رأت عقدا منظوما كهذا العقد ، حوى دررا كهذه الدرر !

قال الدوق — والله يابنفنيتو ! لو أن هذه الدرر من النفاسة بحيث تذكر لما ترددت في شرائها ؛ فاني في حاجة ابدا لاحراز هذه الجواهر الثمينة ، حبا في إحرازها ، وارضاء للأميرة زوجي ، ولكي تكون هذه الكنوز ذخرا لأبنائنا وبناتنا ، وأنا أعلم أنك أبصر الناس بهذه الامور ، وأن عينك لن تخطىء في نقدها وتقديرها . كذلك أعلم انك رزقت الصراحة في القول ، والامانة في النصح ، فأصدقني الخبر ، ولاتخش بأسا ! هل تنصح لي حقا بشرائها ؟

أصغى تشليني إلى كلمات مولاه ، فكأنما سقط عن كاهله عبء ثقيل . لقد كان يمدح تلك اللآلىء بلسانه ويلعنها بقلبه . وكان يعلم وهو يطريها أن هذا المدح يذري به كفنان له رأيه السديد في تقدير الجواهر ، ويذري به كرجل اتخذ الامانة والصدق شعارا . لهذا انكمشت عنه الغمة حين سمع الدوق يناشده الصدق والصراحة ، وقال : إني لأخشى يامولاي — إن أنا صدقتك الخبر عن هذه اللآلىء — أن يشتد على غضب مولاي الدوق ، وتصبح لي من ألد الخصوم ، فأضطر الى مغادرة فلورنسا — وطني المحبوب — مرة أخرى . واليوم وقد تقدمت بي السن فان مغادرة الوطن على شيء عسير . فأستحلف مولاي ان يحميني سخطها ؛ اذ الم يضمن لي رضاها ! ولقد وعدتني مائتي دينار إن أنا استطعت إقناع مولاي بشراء تلك اللآلىء . وقد كان خوفي من غضبها أكبر من طمعي في جائزتها . أما الآن وقد ناشدني مولاي الصدق ، فاني لايسعني إلا أن أخلص في النصح : إن شراء هذه اللآلىء بذلك الثمن صفقة خاسرة . فانها لا تساوي أكثر من ألفي دينار ؛ فاذا كان لابد من شرائها فلا يدفع الامير فوق هذا القدر درهما واحدا .

قال الدوق — كن مطمئنا ! إن الدوقة لن تعلم شيئا مما قلته لي الآن ، ولن يمسك منها أذى . وسأذكر لك أبدا هذا الاخلاص في النصيحة !

* * *

عند ذلك دخلت الأميرة ؛ وقد ظنت أن قد مضى من الزمن مايكفي لاقناع زوجها بشراء العقد . وان قد آن لها ان تضم صوتها الى صوت الفنان فقالت :

— عسى ان يكون مولاي الدوق قد راقه هذا العقد النفيس فانه قلما وقعت عين على عقد يضاهيه حسنا ورونقا ، وماأشد رغبتي في اقتنائه وادخاره !

— لست أرغب في شرائه .

— لماذا يضن علي أميري الكريم بهذا العقد الثمين ؟

ـ لأنى لا أريد أن تذهب أموالى هباء .

ـ أيظن مولاى أن أمواله تذهب هباء ، حين يقتنى بها درراً غالية كهذه الدرر التى قل أن يكون لها فى العالم نظير ؟ كيف وإن بنفنيتو نفسه — الذى يضع فيه مولاى بحق كل ثقته ـ قد رآها فبهرته ونحرته ، وقال ان الأمير لو دفع فى هذه اللآلى ستة آلاف دينار لكانت صفقة رابحة .

قال الدوق : إن بنفنيتو لم يقل شيئا من هذا . بل لقد ذكرلى الساعة انها لآلى خسيسة ؟ وأن شراءها مضيعة للمال . أنظرى أنت اليها ! انها ليست مستديرة ، وليست متساوية فى أحجامها . وكثير منها قديم فقدالرونق والحسن . تأملى فى هذه ... وهذه ... كلا ... إنى لن أرمى بأموالى من أجل هذه السفاسف .

***

دهش تشلينى حين سمع الدوق يخاطب زوجه بهذه الصراحة ويفشى لها سره ، ولم تمض لحظات على اتئمانه عليه .

ونظرت اليه الدوقة نظرات تلتهب فيها نار الغيظ . ثم خرجت من الحجرة وهى تهز رأسها هزة الثائر المتوعد . فاستولى الرعب على الفنان وجعلت الحجرة تدور أمام عينيه . وكاد أن يغشى عليه .

وعاد فى ذلك المساء الى داره مهموما منكس الرأس ... وقدم أن يعد العدة لمغادرة فلورنسا ليلتمس الرزق فى غيرها من المدائن ... ولكنه رأى أعماله التى أخذ ينشئها ، وعز عليه أن يتركها لتهمل وتنسى . أوليتناولها أعداؤه بالمسخ والتشويه . وعز عليه خاصة ذلك التمثال الضخم الذى أوشك أن يتمه ، والذى يمثل فرساوس قابضا على رأس الميدوزا ـ وهو يعد اليوم من أبدع مخلفات عهد النهضة ـ أجل ، عز عليه أن يترك أعماله هذه التى يرشك أن يتمها . ويوشك أن يزداد بها صرح الفن علواً وشموخا .

لو أن هذا الحادث جرى له فى شبابه لبادر الى مغادرة المدينة فى ساعته تلك ، أما اليوم وقد نيف على الخمسين فقد رأى أن يتريث قليلا ، لعل الدوق أن يستطيع حمايته ونصره ، وأن يصلح ماينه وبين الأميرة .

فى اليوم التالى غدا تشلينى الى قصر الدوق لعله أن يلقاه كسابق عادته . ولكنه لم يكد يبلغ القصر ، حتى لقيه أعوان الدوقة ، واضطروه لأن يعود أدراجه بعد أن ناله منهم شىء كثير من الاهانة والعنت . واضطر الفنان أن يلزم داره أياما لا يكاد يجرؤ على مغادرتها . ومن قبل كان الدوق يأمر حجابه بأن يفتحوا له أبواب القصر فى أى وقت شاء ، وألا يحولوا بينه وبين الأمير . أما اليوم فان الدوقة قد أمرت بعكس هذا . وأمرها النافذ ... !

***

وزار تشلينى أحد الأصدقاء ، فأنبأه بأن الدوق قد اشترى ذلك العقد ! أجل ، ولقد دفع فيه ستة آلاف من الدنانير الذهبية راضياً طائعاً ... ذلك أن الدوقة حين أعيتها الحيل . أمسكت العقد بيدها ، وجثت بين يدى زوجها ، وتناثرت من جفونها درر غوال كانت أكثر بهاء وأشد وقعاً فى نفس الأمير من درر ذلك العقد ! وقالت له وهى تنتحب ، إنها اذا حرمت ذلك العقد فقد حرمت كل سعادة ، وقد كتب عليها الشقاء والذل مدى الحياة . وسيعلم الناس جميعا أن الأمير زوجها العزيز ، وسيد أمراء ايطاليا ، الذى تفتديه بروحها ، قد بخل عليها بعقد من اللؤلؤ . وانها لن تطيق الحياة متى علم الناس بما هى فيه من هوان وبلاء ! ... عند ذلك أمر الدوق ـ لساعته ـ بشراء تلك اللآلى ... ولم يكد يفعل حتى رقأ دمع الأميرة وأبرقت أساريرها ، وابتسمت عن لؤلؤ آخر ، كان فيه للملك خير عوض عن اللؤلؤ الذى اشتراه .

***

ومضى تشلينى الى القصر ، وهو لا يكاد يصدق ماسمعته أذناه . فرآه الدوق مقبلا ، فأمر بأن يؤتى به الى حجرته . فلما مثل بين يديه ، قال له من غير تلطف ولا مجاملة :

ويحك يابنفنيتو أيها الشقى ! كيف بلغت بك الجرأة أن تغضب الدوقة مولاتك ، التى طالما أيدتك ونصرتك : فجعلتنى أعرض عن شراء تلك اللآلى النفيسة ! يالك من شقى لايعرف معنى للوفاء والاخلاص ! إذهب أيها التعس الآن الى حجرة الأميرة ، واجث على قدميك بين يديها . واسألها الصفح والمغفرة عن جريرتك . وارجع الى الحق أيها الجاهل . فان الرجوع الى الحق فضيلة ... وعساها تصفح عنك وتعفو عن خطيئتك !

***

وفتح تشلينى عينين ملؤهما الدهشة والحيرة

ـ مولاى أذو حق ... !

ـ لاتنبس أيها الشقى بكلمة . واذهب الساعة فافعل ما أمرتك به .

ومضى تشلينى مطرقا برأسه يمشى فى بطء شديد ليلتمس من مولاته الصفح . لان الرجوع الى الحق فضيلة ... ! ؟